على ضفاف الشعر الكردي

◆ بقلم رئيس التحرير

يقول سترافنسكي(إنَّ في تعذّر الفهم نوعاً من المجد)[1]، لا يقصد تعذر الفهم بل ما يؤول إليه هذا التعذُّرْ من بحثٍ لاحق ولازم وضروري، كما في قوله تعالى(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)يوسف: 36، وهو يقصد أعصر عنباً يؤول خمراً، وهو نوعٌ من المجاز أن يُسمَّى الشيء بما يؤول إليه في المستقبل، فيصير معنى عبارة سترافنسكي: "إنَّ في البحث الناتج عن تعذّر الفهم: نوعٌ من المجد". والمعنى غامض بسبب ابتعاده من الفهم، كالغريب من الناس، لأنَّ أحداً لا يعرفه، يبدؤون بالتخمين والاجتهاد، وقد يرون فيه ما لا يرون في القريب، ولهذا قيل: بنت الدار عَوْرَاء، وزُمَّار الحيِّ لا يُطْرِبْ.

وظيفة الغموض هي إثارة الشهوة إلى معانٍ جديدة ذات أبعادٍ تسير نحو الآفاق كخطوط الطول والعرض، لتعود إلى نقطة البداية، وعند أحد هذه الأبعاد تتقاطع ثقافة الشاعر مع ثقافة القارئ، وإذا لم يحدث تقاطع، ستظهر مشكلة غموض المعنى في أنساق الكلام، والتي كلما تباينت استشرفَت معانٍ جديدة، ولم يَفُتْ منظِّر علم الاجتماع، أنْ يَتَطرَّق إلى صنعة الشِّعر، رغم أنَّه اكتفى بنقل آراء الآخرين، فمجَّد الوضوح على حساب الغموض، حيث يقول ابن خلدون(وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيدٍ على الفهم. وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً، واشتغل الذهن بالغوص عليها، فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري) .[2]وقد تأَكَدَّ لدينا، ووصلنا ما لم يَصِلْ إلى علم ابن خلدون، لأنَّه بحسب جان بوسيل(الزمان شبيه بلغة إيسوب، هو أفضل الأشياء وأسوأها) [3]فالزمان الذي حَرَمَنَا، هو الذي أكدَّ أنَّ شِّعر المعري والمتنبي قد طوَّفا في الآفاق، وأنَّ الأشعار السهلة التي امتدحها اندثرت، وكان أولُّ ممجِّدٍ للإبهام والتغميض في الشِّعر هو الجرجاني (المعنى إذا أتاك ممثَّلاً، في الأكثر ينجلي لك بعد أن يُحْوِجك إلى غير طلبه بالفكرة وتحريك الخاطرِ له والهِمَّة في طلبه، وما كان منه ألطف، كان امتناعه أكثر، وإباؤه أظهر، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه،

كـــان نَيله أحلَى، وبالمزِيَّة أولى، فكان مـــوقـــعـــه من النفس أجلّ وألطف، وكـــانت به أضَنّ وأَشْغَف،...وأشباه ذلك مما يُنال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدُّم المطالبة من النفس به، فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمُّد ما يَكْسِبِ المعنى غمُوضاً، مشرِّفاً له وزائداً في فضله .[4].

والأسطورة والتناص: مصدران من أهم مصادر الغموض في الشِّعر بعد ثقافة الشاعر وأبعادها الصوفية والأسطورية، لكن ما هي الأسطورة؟ يوجد اختلاف كبير في شأن التعريف، يرى البعض("أساطير العالم القديم إنما تمثِّل واحدة من أعمق منجزات الروح الإنسانية، وهو الخلق الملهم لعقول شاعرية خيالية موهوبة، سليمة لم يفسدها تيار الفحص العلمي ولا العقلية التحليلية" " روايات خرافية تطوَّرت من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الإنسان، وأصول العادات والعقائد والأعمال الجارية في أيامهم وكذلك أسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين)[5]، يقول الدكتور إحسان عباس(قد كانت الأسطورة هي الحجاب الكثيف دون فهم الشعر اليوناني وتذوقه، ترى لو أنها وجدت في تاريخ مبكر – تسامحا في التقبل كالذي فعله البيروني، هل كانت تؤدي إلى لقاء من نوع آخر بين الأدبين اليوناني والعربي؟)[6]، ولو قرأنا من قصيدة عبدالوهاب البياتي: "مرثية إلى عائشة"(يموتُ راعي الضأن في انتظاره ميتة جالينوسْ/ يأكل قرص الشمس أورفيوسُ/ تبكي على الفراتِ عشْتَرُوتْ/ تبحثُ في مياههِ عن خاتمٍ ضاعَ وعن أغنية تموت/ تندبُ تموزَ: فيا زوارق الدخان/ عائشة عادتْ مع الشتاءِ للبستانْ)[7]. فلو أنَّ قارئاً لا يعرف جالينوس، ولا أورفيوس، ولا عشتروت ولا تموز، فماذا سيعني له هذا النص الشِّعري؟ أربعة أساطير ساقها البياتي كعوامل مساعدة لأسطرة عائشته التي لا يفتأ يتغنَّى بها، ولكي نستخلص مصادر الغموض في هذا النص، نكشف التناص مع بيت المتنبي الذي ذَهَبَ مثلاً من قصيدته:

يموت راعي الضأن في جهله   موتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره   وازداد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه   كغاية المفرط في حربه؟
فلا قضى حاجته طالب   فؤاده يخفق من رعبه!

وبيت المتنبي، هو مَنْ يسوق اسم جالينوس الأسطورة في علم الطب والتشريح: وحين نكشف عن معنى بيت المتنبي الذي يتشاكل مع معنى بيت الشاعر:

إن الطبيب بطبه ودوائه   لا يستطيع دفاع مقدور أتى

سيصير المعنى ربما: أنَّ طبَّ جالينوس لم ينفعه، إذ جاءه الموت. ويقترب أيضاً من قول بشّار بن بُردْ:

والجد ليس بزائد في رزق مَن   يسعى وليس بنائم عن نائم
ويموتُ راعي الضأن عند تمامه   موت الطبيب الفيلسوف العالم

واستخدم أسطورة أورفيوس اليونانية كرمز للفن، (لقد أفاد البيّاتي من آراء ألْيوت القائلة: إنّ على الشاعر أنْ يكون وريث كلّ الموتى وصديق كلّ العصور. فالكتابة هي وعيُ الماضي على هيئة تفوق وعي الماضي لذاته).[8]

الشعر الكردي:

نقلت الميثولوجيا بطريقة شفوية، وعن طريق الشعر غالباً، في الشعر تحضر الميثولوجيا كأنها

الطيف السحري أو الأثير، لا لأنها تستعيد ما مضى من الزمن ليتجسد مفردةً تشع بدلالاتها المتعددة فقط، بل لأنها تتحقق روحاً محرّكةً للنص الشعري نفسه كلغة ميتة، وتحييه ليرسخ في ذهن المتلقي بمفاتيح الرمز والأسطورة والدلالة. ومن الميثولوجيا يستقي الشعر ريّ أحلامه العطاش، ويرتمي في المدى المفتوح للمخيلة، فيصير أداتها المبصرة، النافذة، وتبقى لغته الإطار لها. وفي قصيدة أمل دنقل(كلمات سبارتاكوس الأخيرة/ مزج ثان):

مُعَلّقٌ أنا على مشانق الصباح
وجبهتي – بالموت – محنيّة
لأنّني لم أحنها .. حيّة !!
يا أخوتي الذين يعبرون في الميدان مُطرقين، منحدرين في نهاية المساء
في شارع الاسكندر الأكبر، لا تخجلوا، ولترفعوا عيونكم إليّ
لأنّكم معلقون إلى جانبي على مشانق القيصر.. ولترفعوا عيونكم إليّ !!
لربّما .. إذا التقت عيونكم بالموت في عينيّ !!
يبتسم الفناء داخلي .. لأنّكم رفعتم رأسكم .. مرّة !!
سيزيف لم تعد على أكتافه الصخرة
يحملها الذين يولدون في مخادع الرقيق
والبحر كالصحراء لا يروي العطش
لأنّ من يقول " لا " لا يرتوي إلاّ من الدموع ! !
فلترفعوا عيونكم للثائر المشنوق
فسوف تنتهون مثله غدا !!
لا تحلموا بعالمٍ سعيد...فخلف كلِّ قيصرٍ يموت..قيصرٌ جديد

وفي قصيدة المحراث لحسن سليفاني(لكنَّ هذا الرأس/ أبى أن يركع في محراب الذل/ لذا ودع الجسد بعز) ومؤيد طيب يقول عن المشنقة ويرمز للصباح:

(غداً صباحاً... لا تبكِ يا أماه/ غداً... أماه/ في جُنح الليل/ وقبل انبلاج الصُبح،/ قبل أن تترَك الأعشاش،/ قبل إفاقةِ العمال،/ أنا والمِشنقة/ على موعد!./ غداً... أماه/ ستحضنني/ الصخورُ والأحراش/ الثلوجُ والدماء/ وحبيبتي الحسناء،/ سنحلقُ معاً في السماء). ويقول الشاعر عارف حيتو(أيتها الدنيا/ من يضيق ذرعاً/ اليوم عُرْس الراعي حسو)الراعي حسو هو أورفيوس وكان أعظم الموسيقيين نظماً وعزفاً، وأعذب الناس صوتاً في الميثولوجيا اليونانية وكانت موسيقاه ذات تأثير سحري على كل شيء حتى الجماد، أراد أن يبني قصراً لزوجته -أوريديس- فطفق يغني ويعزف على قيثارته الإلهية فاختلجت الأحجار بالحياة ,فاصطفت من تلقاء نفسها إلى أن أتمت بناء القصر المنشود، ذات يوم خرجت أوريديس إلى الحقول ,وبينما كانت تقطف زهرة لتزين بها شعرها لدغتها أفعى فتسممت وماتت وحملتها الأرواح الخبيثة إلى مملكة الظلمات في الجحيم. وعندما عرف أورفيوس بذلك أصابه حزنٌ عظيم ومضى إلى أبواب العالم السفلي وأخذ ينشد ويعزف ألحاناً رقيقة أسكرت الشياطين الموكلين بحراسة الأبواب ,وأسدلت على أجفانهم سنة من النوم لذيذة هانئة، تسلل أورفيوس بجرأة إلى أن بلغ عرش هاديس(بلوتون عند الرومان وآرشكيجال شقيقة عشتار عند البابليين) إله العالم السفلي فاستدر عطفه بأنغامه، فسمحَ له بالدخول إلى مملكة الأموات وإنقاذ

زوجته منها، لكنه اشترط عليه ألا ينظر إليها إلا بعد خروجه من حدود العالم السفلي،فلم يصبر ولمحها بطرف عينه، فطردوه وهام أورفيوس في فجاج الأرض باكياً حزيناً يائساً ,والتقى أثناء شروده في مقاطعة – تراس- بسرب من الغواني راودنه عن نفسه فأبى واستكبر ,فنقمن عليه ومزّقن جسده ,وَقَطَّعْنَهُ إرباً ,ورمين برأسه وقيثارته في النهر. ويقابل هذه الزيارة زيارة أوديسيا إلى العالم السفلي والتقائه بوالدته وبالملك آغا ممنون وكيف أن زوجته خانته ووضعت له السم في الطعام وكذلك نزول عشتار إلى العالم السفلي عند شقيقتها آرشكيجال، ونزول تموز الذي يولد في نيسان أول الربيع، وفي فترة السلالة السومرية تعددت الآلهة لدرجة أن أصبح لكل شيء إله ولكل ولاية آلهة. فمثلا هنالك إلهة الأرض والأنوثة (انيني العذراء) ,إله الشفع (ننكرساج) ,إله الفيضانات (تنجرسو) ,إله الزرع والذكورة (تموز أو أبو) ,إله القمر (سين)...,, وكانوا يعتقدون أن السماء ممتلئة بالملائكة والأرواح والشياطين ,كما أنهم كانوا يتقربون من المعابد الممتلئة بالآلهة عن طريق الأزواج والطعام والمال. كل شيء يحمل بعداً زمنياً، وبأنَّ ذلك البعد هو من جوهر الميثولوجيا، فالمجتمعات البدائية تصنع الأساطير كما تصنعها المجتمعات المتحضِّرة ولكن بأشكال مختلفة.

فاضل عمر يقول في قصيدته " في المحكمة كشفتُ عن نفسي"(كل ليلة/ يجتمع خمبابا وكلكامش على رمسي/ يبتسم الأول.يعبس الثاني/ حولوا عيني إلى مسبحة).

(خمبابا × كلكامش/ يبتسم × يعبس/ الأول × الثاني/ عيون × حبات المسبحة/ الزهاد × المتصوفة/ الرمس × (الحياة) ومحسن قوجان يسرق إكسير كلكامش من فم الأفعى، عبدالرحمن المزوري يحاول أن يقوم بعملية أسطرة فهو يجري خطابا في شعره يظهر فيه عدم رضاه عن القمر لأنَّه يغير شكله باستمرار.

الهوامش

[1] جودت نور الدين- مع الشعر العربي: أين هي الأزمة؟- دار الآداب- ط-1 1996- بيروت- ص65.

[2] مقدمة ابن خلدون- عبدالرحمن بن خلدون- دار الغجر للتراث- ط-1 2004- القاهرة- ص733.

[3] جان بوسيل- الزمان-ترجمة محمد نديم خشفة- مركز الإنماء الحضاري- ط-2005 -1حلب- ص5.

[4] عبدالقاهر الجرجاني- أسرار البلاغة- ص50. بدون ط وت.

[5] مجلة الأقلام- العدد 8- أيار 1976: وليم ويميزات- الأسطورة والنموذج البدائي- ترجمة محي الدين صبحي. عبدالرضا علي- الأسطورة في شعر السياب- وزارة الثقافة والفنون العراقية- 1978- ص14.

[6] إحسان عباس- ملامح يونانية في الأدب العربي- ط1-1977 - المؤسسة العربية للدراسات والنشر- ص32.

[7] ديوان عبدالوهاب البياتي: ج2- دار العودة- -1972بيروت- ص143.

[8] مجلة نزوى- نيسان 2007- مقالة محمد الغزي:النصّ الغائب في شعر عبد الوهاب البيّاتي والمصدر الثانوي من د. عبد الواحد لؤلؤة: من قضايا الشّعر العربيّ المعاصر -التناص مع الشّعر الغربيّ- مجلّة الوحدة، عدد 82/83، 1991.